جزر الأرض والوجدان

مدوّنة بقلم سهام الأمين

بمساهمة: علي مرابط، علياء السلامي، عزيز الغرياني، جميلة بينوس، سهام الأمين، يافا السعيدي.
تحرير التقرير: شيراز الهيشري
التصميم الخرائطي: علياء قنوني

بصفتها شريكًا في برنامج «سلاش ترنسسيون», جمعت جمعية «الشارع فن» في سنة 2025، داخل «هَب محلي» الخاص بها، مجموعة أعمال متعددة الاختصاصات بهدف التفكير في المدينة العتيقة لتونس ودراستها باعتبارها مجالًا في طور التحول وفضاءً محتملًا للإقامات الفنية.

جزر الأرض والوجدان:
دليل في التحوّلات الحضرية في المدينة العتيقة بتونس

المدينة العتيقة هي كيان حضري تاريخي فريد مليء بالفخاخ الدقيقة التي قد يتعثر فيها حتى الزائر الأكثر خبرة. والتجول في مثل هذا المكان يعني المخاطرة بالانجراف نحو نظرة تروج للرومانسية أو الاستشراق لحياة أولئك الذين يسكنونه. يمكن لعقل الزائر أن يُدفع بشكل غير واعٍ إلى عوالم تُحوَّل فيها مساكن المجتمع وأفراحه وصراعاته إلى أشياءً جمالية بحتة. يمكن للمدن التاريخية أن تغريك حقًا بالحنين والتقدير السطحي، مما يجرّد ما هو إنساني بطبعه من إنسانيته.

المدن العتيقة هي أيضًا أشكال حضرية انطوائية بعمق. تتميز بجميع أنواع الحدود المادية وغير المادية التي تفصل بين المجالين العام والخاص، مما يجعلها صعبة الاقتراب والفهم. في تونس، تسرق آلاف الأبواب المطلية بألوان زاهية مشهد الشوارع. إذ يمكن للزائر أن يتجول في المدينة لعدة أيام، مستمتعًا بجمال حرفها الساحر، ولكن بالكاد يلمس الحياة التي تنبض خلفها. في الواقع، لا تفشل مشاهد المدينة العتيقة أبدًا في إشباع الشهية السياحية للصور الغريبة.

هذا الغرابة هي إحدى فخاخ المدينة العتيقة بتونس. يبدو هذا الأمر حميدا وغير ضار، لكنه قد يعيق التفاعل الأعمق مع البيئة المبنية وسكانها. ومن شأنه أن يعيق كذلك الفضول لفهم أنظمتها وقد يحفز حتى تخيلات لأشكال من الغموض الآخر وراء الشاشات المزخرفة. لا مفر، فإن كل ما يبقى غير مرئي يتشكل عقليًا بواسطة التحيزات.
تهدف المذكرة والخريطة المقترحتان إلى أن تكونا رفيقين تمهيديين للتنقل في تعقيدات المدينة العتيقة بتونس، وهو موقع يتميز بالتباينات اللافتة والتغيرات السريعة، وللمساعدة في تجنب بعض المطبّات التي تتخللها.
تمتد المدينة على أكثر من 270 ألف هكتار؛ وهي واحدة من أكبر المواقع الحضرية التي تعود إلى العصور الوسطى وأفضلها حفظًا حول البحر الأبيض المتوسط. يعود تاريخ تأسيسها الإسلامي إلى القرن السابع، وقد تشكلت مع تجدد الحياة الحضرية بعد فتح مدينة قرطاج القديمة المجاورة. تم إدراج المدينة العتيقة كموقع للتراث العالمي لليونسكو منذ عام 1979.
واليوم، يعد هذا الموقع التاريخي، الذي يزيد عمره عن ثلاثة عشر قرنًا، موطنًا لأكثر من 100 ألف شخص، معظمهم ينتمون إلى فئات اجتماعية هشّة ومنخفضة الدخل.
تستخدم هذا الوثيقة العاطفة كمادة أساسية لفهم المكان. إذ يمكن العثور على عديد الوثائق المتاحة حول تاريخ المدينة العتيقة ومنشآتها؛ ولكن هناك القليل من الأدب (المترجم) حول كيفية العيش وإدراك الموقع عاطفياً وحسياً. هذا النص لا يطمح إلى أن يكون شاملاً أو تركيبياً؛ بل هو يجمع بين عدد من الانطباعات الذاتية حول التغيرات -الإيجابية والسلبية- التي تحدث في أماكن محددة في المدينة العتيقة.

الهدف من هذا النهج هو تقديم دلائل لتسهيل اللقاء الأول بين الفنانين والمدينة، ومساعدتهم على تجريد نظرتهم الأولى من جميع أنواع المفاهيم المسبقة والانحيازات المشتتة الأخرى. هذه دعوة لرؤية المزيد، للنظر إلى ما وراء الظاهر والمتوقع، والتعرف على المدينة العتيقة استنادا إلى نظرة وإحساس أولئك الذين يحبونها.

المنهجية:

حول رسم الخرائط للذاتيات من خلال الاستكشاف الحسي للمدينة العتيقة

تم إعداد هذا النص والخريطة التي توضحه دون معرفة الفنان الذي سيستخدمها.و تمثّل هذا التمرين في إنشاء كبسولة بصرية وذهنية لمساعدة أي فنان يعمل ضمن مجال الصوت، والبيئة المبنية على فك بعض الرموز الحضرية التي يواجهها الفنانون عند اتخاذ خطواتهم الأولى في المركز التاريخي المذهل.

لإنشاء الخريطة، طلبنا من ستة أفراد لديهم روابط قوية بالمدينة العتيقة أن يخبرونا عن الأماكن التي تحمل قيمة عاطفية كبيرة بالنسبة لهم، والتي يعتقدون أنها الأكثر تأثراً بالتحولات الحضرية. الأشخاص الذين سألناهم هم: علي (موسيقي، دي جي)، علياء (موسيقية، مغنية)، عزيز (مهندس معماري)، جميلة (مخططة حضرية)، سهام (مهندسة معمارية) ويافا (مديرة مشروع). روابطهم مع المدينة تختلف في الطبيعة لكنها متساوية في الشدة.
لدهشتنا، كانت جلسات العمل الأولى حول المدينة العتيقة تركز بشكل كبير على التناقضات والثنائيات. عند سؤالهم عن التغيرات في المدينة، وصف المساهمون غالبًا شعورًا بالتشتت بين الجوانب المتناقضة: المرئي وغير المرئي، العام والخاص، المعدني والنباتي، المقدس والعلماني، النهار والليل، وبين الأماكن التي تم تحويلها إلى متاحف والمواقع التي لا تزال حية بالكامل! بدلاً من التراجع إلى تحليل هذه التناقضات – التي قد توفر ملاذًا مريحًا من التعقيدات المتعددة الطبقات لهذه السياقات الحضرية وتخفي ظلالها الرمادية – اخترنا بدلاً من ذلك رسم خرائط لها، وتمثيل كيف تتجسد هذه المواضيع في الأماكن المادية وكيف يتم إدراكها.

مع اختيار الأماكن، قمنا بتجميع أرخبيل من «الجزر» الحضرية التي تبرز من «البحر» الحضري الأكبر للمدينة. ويشكّل الأرخبيل جسدًا إدراكيًا من الأماكن التي تحمل معنى للأفراد الذين اختاروها. هم يستعرضون شعورهم بالانتماء إلى المكان، لكنهم أيضًا يروون إحباطهم وخوفهم من فقدانه.
تقدم هذه الوثيقة فرصة لاستكشاف المدينة العتيقة من خلال حواس ستة أشخاص مختلفين. ويتكون الأرخبيل المقترح من عدد من المواقع المادية التي يمكن تحديدها على الخريطة. كما أنه يستحضر مجموعة متنوعة من المشاعر والذوات والتجارب الحسيّة التي تربط الأفراد بهذه الأماكن، وبالتالي بالأرض.

نصائح للاستخدام:

الخريطة المقترحة هي ليست مسارًا محددًا. بل هي تتضمن أماكن يمكن زيارتها بأي ترتيب كان. التجربة المتوقعة لزيارة المدينة العتيقة تشبه قراءة القصص القصيرة، بدلاً من قراءة الروايات يمكن للزائر أن يبدأ من أي مكان، ويزور مكانًا أكثر من مرة، ويضيع في محاولة السير بين الجزر.

ليس من المستغرب أن تختلف أجزاء الأرخبيل في الشكل والوظيفة والمعنى. ويُدعى مستخدمو هذا الأرخبيل إلى اعتبار الجزر نقاط ارتكاز أثناء اكتشافهم لبقية المشهد الحضري.

التنقل في المدينة العتيقة بتونس يشبه دخول بيئات حضرية متماسكة للغاية، حيث قد تبدو جميع الأنماط متشابهة (المنازل تبدو كمدارس، المواخير تبدو كالثكنات، إلخ). غالبًا ما تُعتبر التجربة مغامرة في متاهة حيث يضيع الزوار جسديًا وعاطفيًا وثقافيًا. والخريطة المقترحة هي محاولة لمساعدتهم على فك تشابك هذه المتاهة.
تُظهر الخريطة جزر الأرخبيل في سياق المحور التاريخي الرئيسي للمدينة العتيقة وآثار أسوارها القديمة. بمجرد أن يفهم المستخدم الأعمدة الهيكلية التي تربط النسيج الحضري معًا والغشاء الذي يفصلها عن بقية المدينة، يتغلب على الارتباك الأول ويحتضن النسيج الحضري الذي يستكشفه (بثقة أكبر).

تعالج هذه المدوّنة والخريطة كذلك ذاتية مستخدمها. أثناء شق طريقهم عبر جزر الأراضي ومؤثراتها، وما حولها، يقومون بإنشاء خريطة اهتماماتهم الخاصة وبناء تعاطفهم الخاص تجاه المكان.

جامع الزيتونة

القلب النابض للمدينة

يعـود قـدم جامـع الزيتونـة عـلى الأرجـح إلى قـدم المدينـة العتيقـة نفسـها. وقـد كان النسـيج الحضـري للمدينـة العتيقـة يتوسـع دون انقطـاع حـول الجامـع الـذي هـو بمثابـة بـذرة حضريـة، منـذ أواخـر القـرن السـابع عـلى الأقـل. ولأكثـر مـن ١٣٠٠ عـام، عمـل هـذا المعلـم الحضـري كنقطـة مركزيـة رئيسـية: كمـكان مقـدس، ولكـن أيضًـا كمـكان للتعليـم والعدالـة والتواصـل الاجتماعـي. وخـلال كل هـذا الوقـت، دون انقطـاع، ظـل جامـع الزيتونـة موجـودًا كتـراث مشـترك: منـارة للذاكـرة المشـتركة.

يقـع جامـع الزيتونـة فـي وسـط الشـبكة التجاريـة الكثيفـة لأسـواق المدينـة العتيقـة. صانعـو العطـور، وصانعـو المنسـوجات، والخياطـون، وبائعـو مسـتلزمات الأعـراس، وبائعـو البخـور الذيـن قـد زرعـوا متاجرهـم فـي جـدران المعلـم. وحـول هـذه الجـدران نفسـها، فـي المناطـق المحيطـة بالجامـع المركـزي، تنسـج المدينـة نسـيجها التجـاري: المجوهـرات، قبعات الشاشـية، أسـواق الكتـب. وتمتـد شـبكته الثقافيـة والفكريـة والدينيـة مـن المـدارس والمسـاجد والحمامـات والأضرحـة...

يبـدو المـكان وكأنـه لـم يمسـه الزمـن. لكـن قاعـة الصـلاة ترجـع إلى القـرن التاسـع؛ وتعـود القبـة المطلّـة عـلى الفنـاء إلى القـرن العاشـر، وتعـود الأروقـة الشـرقية إلى القـرن السـابع عشـر؛ أمـا الرخـام والحجـارة، فهـي تأتـي مـن المبانـي الأثريـة المجـاورة الرومانيـة والبيزنطيـة التـي تـم تفكيكهـا، والمئذنـة هـي قطعـة أخيـرة أضيفـت فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر...

يعتبـر هـذا المعلـم التاريخـي أساسـيًا وجوهريًـا، وهـو رمـز للاسـتمرارية الحضريـة والثبـات الملحـوظ. ومـع ذلـك، تـرك كل تحـول تاريخـي شـهده كبيـر بصمتـه؛ كل حاكـم أراد أن تُـرى سـلطته فـي هـذا المبنـى خصيصـا. وقـد تحمّـل جامـع الزيتونـة التحـولات السياسـية والاجتماعيـة وحتـى الطبيعيـة، فهـو يحمـل إضافـات وآثـارًا وندوبًـا مـن أوقـات الازدهـار وأوقـات الأزمـات. هـذا الجامـع هـو مقـرّ للذاكـرة الجماعيـة، كتـاب مفتـوح لتاريـخ المدينـة: تتـرك التعديـلات الطفيفة صفحاتـه بـلا علامـات، لكـن الإيمـاءات الواسـعة والقاسـية تتـرك أثـراً ملحوظـا.

اليـوم، يشـكل صحـن الزيتونـة مجـالًا عامًـا نابضًـا بالحيـاة، حيـث يمكـن للنـاس الصـلاة، والجلـوس، والتجـول، والتأمّـل. تتـم الزيـارات داخـل جامـع الزيتونـة خـلال فتـرة بعـد الظهـر، بيـن صلاتـي العصـر والمغـرب؛ والجميـع مرحـب بهـم طالمـا يحترمـون قواعـد اللبـاس.

مـن الصحـن، يكـون التبايـن مـع الأسـواق المحيطـة الصاخبـة وبقيـة البيئـة الحضريـة لافتًـا للنظـر: دخـول فنـاء المسـجد يشـبه أن تُسـحب مـن الأسـواق الضيقـة والصاخبـة والمزدحمـة إلى مـكان واسـع ومشـرق ومريـح وسـلمي. تتبـع التجربـة الصوتيـة طقوسًـا متكـررة: الأذان فـي أوقاتـه، أسـراب الطيـور، موجـات المصليـن القادميـن والذاهبيـن، الأطفـال يلعبـون فـي الأرجـاء...

خلـف جدرانـه السـميكة، يخلـق هـذا الفنـاء شـعورًا بالانفصـال عـن أصـوات المدينـة العتيقـة؛ كأنـه لـم يكـن هنـاك محـرك يعمـل، أو جهـاز تضخيـم صـوت، أو بائـع متجـول ينـادي. فـي أعمـاق المدينـة، السـاكنة والسـليمة رغـم كل مـا عانتـه، الوقـت لا يعنـي شـيئًا. ومـع ذلـك، فـإن مرونـة هـذه الأماكـن أمـام الزمـن تذكيـر هـادئ بنهايـة وجودنـا كبشـر، مجـرد عابـري سـبيل عابريـن.

نهج سيدي بن عروس

المقاهي والأسطح:
مدينة تعيد ابتكار نفسها

نهج سيدي بن عروس هو جزء من المحور الرئيسي، الشمالي الجنوبي للمدينة. وهو جزء يربط بين الجامع الكبير والضاحية الشمالية من خلال سلسلة من الساحات الصغيرة. لطالما كانت هذه المنطقة تجارية وسكنية في المقام الأول، لكنها تتحول بسرعة إلى ممشى تصطف على جانبيه المقاهي والمطاعم ومحلات الآيس كريم للسياح والسكان المحليين على حد سواء.

يبرز النهج كوجهة رئيسية للمجموعات التي، حتى وقت قريب، لم تكن تعتبر المدينة وجهة للترفيه أو التجمعات الاجتماعية خارج شهر رمضان. أمّا اليوم، على مدار السنة، يأتي الزوار من جميع الأعمار للجلوس في النهج المظلل والمضاء، ويشربون الشاي أو القهوة، ويلتقطون صور السيلفي أمام خلفية المدينة... ثم يغادرون.

الآن في نهج سيدي بن عروس وحوله، تتغير الحياة الحضرية – فهي تحول الطبيعة نفسها للبيئة المبنية وتتدخل بشكل لا مفر منه في النسيج السكني الراسخ منذ زمن طويل. القوانين التي كانت تحدد علاقة واضحة بين العام والخاص، بين الشارع والفناء، بين الممر الرئيسي والأزقة الصغيرة تتلاشى. تُحفر فتحات كبيرة في المخازن والسقائف الأصلية؛ وتقوم واجهات العرض الكبيرة بـ «تفريغ» المنازل من الداخل؛ وتفتح الأسطح التي تم تحويلها إلى مقاهي ومطاعم آفاقًا جديدة على الخصوصية التي كانت محمية ومختبئة لفترة طويلة.

من سيدي بن عروس إلى ساحة رمضان باي، ظهرت عشرة مقاهي في العقد الماضي: مقهى حمودة باشا الذي كان في السابق دار طباعة، تم ترميمه واحتفظ بميزاته الجمالية وطوابع الطابعات وآلات أخرى؛ يقع مقهى الدربية في ما كان يُعرف بدربية الدولاتلي، وهو ممر مقبب شبه عام يؤدي إلى المحكمة التاريخية حيث كان يقضي أولئك الذين سيحاكمون في اليوم التالي ليلتهم في الانتظار؛ وكان مقهى القبة يُعرف سابقًا بتربة الخوجة، وهي ضريح يعود للقرن الثامن عشر. اليوم، قبتها تأوي مقهى شاي بدلاً من قبر. أمّا على طول الشارع، فقد ظهرت المزيد من المقاهي، تحمل أسماء مثل مقهى يوما، مريومة كوين، أيام زمان، أو يامي كورنر، علاوة على لافتات ما بعد الحداثة التي تظهر إضاءة ملونة، وفتحات ضخمة في الواجهات التي كانت في الأصل عمياء.

وبالتوازي مع انتشار المقاهي، تبرز الأسطح هنا وهناك، مقدمةً أماكن للجلوس ولفتح المطاعم وحتى حفلات الدي جي حول المسابح، مما يقدم طريقة جديدة لاكتشاف المدينة العتيقة. هي أكثر برودة في الصيف، وأكثر دفئًا في الشتاء، وتقدم مشاهد رائعة على المناظر الطبيعية، أصبحت الأسطح الجديدة «المنتج» لتجربة مدينة عتيقة صارت مرموقة.

لأنه يطل على فناء الجيران، كان سطح المنزل في السابق جزءًا من أقل الأجزاء وصولاً في النظام الحضري السكني. كانت الأسطح تُزار فقط بشكل عرضي وطقوسي لتنظيفها وتبييضها، وتجفيف الكسكسي والفلفل الأحمر والمواد الغذائية الأخرى، أو - لمن لديهم سلالم - لتجفيف الغسيل.

ظهور المقاهي والمساحات على الأسطح - غالبًا كجزء من منازل تم تحويلها إلى فنادق بوتيك أو بيوت ضيافة للإيجار القصير - يشكّل أسرع وأكبر تغيير حضري شهدته المدينة العتيقة وسيستمر في تجربته في العقد القادم.

المساحات التي كانت مخفية في المجال السكني الخاص يعاد تعريفها وكشفها تدريجياً حيث تتحول لتشارك في التحول الأكبر الذي يؤثر على الحياة التجارية والاجتماعية في المدينة. فعلى طول وحول نهج سيدي بن عروس، تنكشف مفاوضات إقليمية هادئة، ولكن متوترة بين السكان والمستثمرين الجدد، أولئك الذين سيبقون وأولئك الذين سيرحلون مع تحوّل منازلهم، أحيانًا بإرادتهم الشخصية، وأحيانًا مدفوعين بتيار التحديث الذي لا يمكن إيقافه.

© Aymen Trabelsi

زاوية سيدي محرز

«ساحة المعجزات» في المدينة العتيقة

في الأجزاء الشمالية من المدينة العتيقة، بالقرب من باب سويقة، يقع قبر سيدي محرز ابن خلف، الشخصية الموقرة من القرن العاشر، والمكرمة كالحارس الروحي لتونس. قدسية موقع دفنه تشع في المنطقة المحيطة، مما يكوّن نقطة وصل رئيسية تجمع بين الزاوية، ملحقاتها، جامع محمد باي، وأسواق سيدي محرز. ويمتد ذلك إلى الحفصية، المعروفة سابقًا بالحارة، والتي يُعتقد أنها كانت المنطقة المخصصة للجالية اليهودية من قبل سيدي محرز نفسه.

تُشير هذه المنطقة إلى مدخل المحور الثاني الرئيسي للمدينة من الشمال إلى الجنوب، الذي يربط بين باب السويقة وباب الجزيرة. ويمتد السوق بالتوازي مع نهج سيدي بن عروس، وهو الشارع الرئيسي الآخر في المدينة العتيقة. يشكل كلا المحورين مسارات النشاط الحضري المكثف. ومع ذلك، على عكس محور سيدي بن عروس الذي حافظ على الكثير من استمراريته، تتخلل منطقة سيدي محرز اليوم مناطق أخرى أعيد تشكيلها بشكل واضح، بسبب عمليات الهدم الواسعة النطاق، ونزوح السكان، وإعادة الإعمار.

عند الاقتراب من أروقة سيدي محرز، يخطو المرء من أحد أكثر أسواق المدينة ازدحامًا إلى ردهة حيث تتردد كل خطوة وهمسة وصيحة: سقيفة سيدي محرز. تقليديًا، كان هذا الزقاق المقبب يوفر ملاذًا للنساء المعنفات أو المرفوضات وللآخرين الذين تم إقصاؤهم من المجتمع. عبور عتبته كان يعني الدخول تحت حماية القديس. في سقيفة سيدي محرز، يتم تعليق كل من سلطة الشرطة والنظام القضائي والسلطة الأبوية.

منذ القرن الحادي عشر، كانت الاحتفالات الموسمية، والأعياد، والأعراس، والختانات تُقام تحت أقواس السقيفة كل يوم جمعة، كانت تُقدَّم هناك قرابين من الطعام للمحتاجين والزوار. ولمئات السنين، كان الحجاج يأتون من أجل الماء من آبار سيدي محرز وبركته. على مدى قرون، حملت هذه السقيفة أيضًا صدى الألم والدعاء لأولئك الذين يبحثون عن المساعدة، أو يعبرون عن شكاواهم، أو حزنهم. في السقيفة، يتجول الزائر في مساحة عبور: بين السوق والملاذ، الضجيج والسكينة، الانكشاف والملجأ.

يعكس الهيكل المقبب الفخم الذي نراه اليوم إلى حد كبير التوسعات والزخرفات التي أُجريت في القرن التاسع عشر على الضريح القائم. تحت هذا القبة المستطيلة، التي تعتبر واحدة من أكبر القباب في المدينة، يجلس الزوار بهدوء حول قبر سيدي محرز، يصلون أو يتحدثون همسًا، بكلمات خافتة كالأنفاس.

الجميع مرحب بهم. ما يوحّد أولئك الذين يدخلون الغرفة المقببة ليس الدين ولا اللباس، بل الشوق للحظة من القرب من الغيب والمجهول، فرصة، حتى لو كانت لفترة قصيرة، للاقتراب من «القوة الخيرة للقديسين»، والصلاة من أجل الشفاء، الخلاص، الخصوبة، الهداية، أو الحظ، والمغادرة مطمئنين ومريحين.

لا يزال الناس يأتون إلى هذه الزوايا من المدينة من بعيد وقريب، بانتظام أو بين الحين والآخر، لأسباب متنوعة: الإيمان الديني، الشعور بالواجب، الحاجة إلى الروحانية، التقاليد، أو ببساطة اليأس. ربما خضع الضريح والمدينة المحيطة به لتحولات أكثر مما يمكننا أن نتخيل. لكن ما لم يتغير هو الحاجة التقليدية الراسخة إلى الاعتقاد بأنه في ظل قباب معينة، لا يزال من الممكن حدوث المعجزات.

الجزيرة 4

تربة الباي

مقبرة البايات في المدينة

تُربة الباي هي موقع الدفن التاريخي للعائلة المالكة للبايات الحسينيين، التي حكمت تونس من عام 1705 إلى عام 1957. بُنيت في أواخر القرن الثامن عشر، وتتميز هذه المدافن الملكية بسلسلة من غرف الدفن المقببة التي تحتوي على أكثر من 165 قبرًا، بما في ذلك قبور 14 باي وزوجاتهم وورثتهم وأعضاء محاكمهم.

وقد حسمت الترميمات الأخيرة مصير هذا المكان باعتباره كائن متحفي، ثابت للأبد. وتم إنشاءه ليكون بعيدًا عن التحولات الحضرية التي تحدث من حوله، ويبقى غير قابل للمساس وغير قابل للتغيير. لا يُسمح بأي تغيير هنا: لا نمو، لا إعادة ابتكار، فقط سكون، صمت مُنسق، صيانة، وزيارات ذات تذاكر.

تنافس هندسة هذه المقبرة تلك الخاصة بالمساكن الملكية، حيث تعرض بعضًا من أرقى التقاليد الإنشائية والزخرفية في المدينة العتيقة. بدون قبورهم، يمكن بسهولة الخلط بين غرف الدفن الفخمة المرتبة حول ساحات مشمسة مزروعة وبين المساكن الملكية. هنا، تتخذ الذاكرة شكلًا ضخمًا، حيويًا ومفاجئًا في بهجته.
يتجول الزوار بين شواهد القبور المزينة بعمائم عثمانية منحوتة، وأغطية رأس من مختلف الأنماط، تعكس مكانة المتوفى في السلالة العثمانية. وتكشف أسماء الشخصيات البارزة المنقوشة على شواهد القبور عن أبطال المؤامرات الأسرية المعروفة في تاريخ البلاد.

يقع هذا المكان المتكون من الرخام الهادئ والصمت، في حي نابض بالحياة مليء بورش الحرفيين والمنازل التي تخضع للتغييرات، على بعد خطوات قليلة من سوق الصباغين. ومع ذلك، فقد صمد بثبات ملحوظ.

نجت تربة الباي من سقوط الأنظمة، والغزوات، والحملات الحكومية ضد الملكية. ومع ذلك، لم تُدنَّس القبور ولم تُزحزح.
حتى الشخصيات التي تُعتبر فاسدة وخبيثة لم تُمس أماكن راحتها.

يكرّم هذا الموقع الأعضاء المتوفين من السلالة التي حكمت تونس لمدة ثلاثة قرون. صعود الحسينيين وسقوطهم مرئي حتى في الجودة المعمارية لغرف الدفن وشواهد القبور. ومن خلال الحفاظ على هذا المعلم التاريخي، ادعت الجمهورية التونسية الفتية، التي حلّت محل النظام الملكي في عام 1957، ملكية السرد التاريخي للبلاد.

ومن خلال الاستيلاء على الموقع، وضعت الدولة التونسية نفسها في موقع الحارس الرئيسي للماضي: الحارس الذي يحدد ما يمكن تغييره، وما يجب أن يختفي، وما يجب أن يبقى دون تغيير.

باب الأقواس
فضاء الرقص والموسيقى

عند مغادرتك المدينة العتيقة في اتجاه إلى باب سعدون في نهاية اليوم، تتجه غربًا، متبعًا خط غروب الشمس. تبدأ الرحلة في ساحة باب سويقة، التي كانت في يوم من الأيام مركز الحياة الفنية والفكرية في تونس، وتؤدي نحو باردو، حيث كانت المدينة تفتح على بساتين غنّاء وقصور فخمة.

على طول الطريق تقع منطقة باب الأقواس. على الرغم من اسمه، فإن باب الأقواس ليس بوابة من البوابات الداخلية أو الخارجية للمدينة. بل تطورت كزقاق تجاري وحرفي في الضاحية الشمالية، مصفوف على جانبيه بصانعي وبائعي الآلات الموسيقية، مما يشكل عرضًا حيًا للثقافة والصناعة الموسيقية في المدينة.
حي باب الأقواس يحمل الندوب المرئية للتدخلات الحديثة في المدينة. في الثمانينيات، أدت أعمال بناء نفق تحت الأرض إلى هدم باب سويقة التاريخي. اليوم، يقف النفق كفجوة صارخة في النسيج الحضري: فهو يفصل بين جانبي الشارع عن بعضهما البعض ويقطع الجزء المتبقي من باب الأقواس عن باب سويقة.

ومع ذلك، عندما تترك خلفك الواجهات المتفحمة لورش الحدادة التي تصطف على طول الهيكل الذي يقع تحت الأرض للنفق، تظهر واجهات أكثر بهجة: صانعي الآلات الموسيقية. العديد من واجهاتهم مغطاة بأعلام الفريق الكروي للحي الحمراء والصفراء والسوداء. هنا وهناك، يظهر ملصق قائم يحمل صورة بسيطة لعازف فرقة موسيقية يرتدي زياً احتفاليًا قرمزي اللون.
الشارع هو بانوراما من الصوت والحرفة: صناع البندير (الطبل الإطار)، الدربوكة (الطبل اليدوي الفخاري)، وآلات الإيقاع الأخرى؛ فرق النحاس لحفلات الزفاف والختان؛ ومحلات العروض، التي تكون أحيانًا مخبأة في محلات الحلاقة، تقدم الطيف الكامل من الأنماط الموسيقية المحلية. موسيزة أو موسيقى نحاسية (موسيقى نحاسية)، سلمية (أغاني دينية)، عيساوية (موسيقى ورقص صوفي)، مزود (فرق المزمار والطبول)، طبال (آلات النفخ والطبول)، عوادة (فرق الآلات الوترية الشرقية)، الرقص الشعبي وحتى السطمبالي (الموسيقى التونسية السوداء)...
أكثر الفترات حيوية هي تلك التي تقدمها فرق النحاس، التي تؤدي حفلات موسيقية، عادةً في المواكب الافتتاحية للاحتفالات، وغالبًا ما تُعزف في الهواء الطلق، أثناء الحركة، متبعة الحشود التي تواكب الشخصيات المحتفى بها: العروس، العريس، أو الطفل الذي تم ختانه حديثًا. تعود جذور التقاليد النحاسية في تونس إلى الموسيقى العسكرية العثمانية، موسيقى الباي. ومن المفارقات أن هذا التراث الاحتفالي قد تم الحفاظ عليه بعد الاستقلال وإعادة توجيهه لأغراض سياسية، مصاحبًا الوظائف الاحتفالية للخلايا الحزبية، محتفلًا بزيارات المسؤولين والفعاليات الافتتاحية في جميع أنحاء البلاد!

ومع ذلك، فإن أشهر محلات الموسيقى في باب الأقواس هي تلك الخاصة بعازفي المزود. شخصيات أسطورية مثل المغني إسماعيل الحطاب وفرقته، والراقصين الشعبيين مثل حمادي لغبابي وشقيقاته زينة وعزيزة، جميعهم كان لديهم محلات على طول هذا الشارع. كان الزبائن يأتون من جميع أنحاء البلاد لحجز عرض موسيقي احتفالي لهذه الشخصيات.

يقع باب الأقواس في قلب إنتاج الموسيقى في الضاحية الشمالية للرّبط حيث يستمر إرث صناعة الموسيقى في آثار قاعات الحفلات السابقة والكافيشانتا -المقاهي الغنائية- في باب سويقة والحلفاوين. تحتضن الضاحية الجنوبية أيضًا بيئتها الموسيقية الخاصة من الفرق والمشرفين على الموسيقى الشعبية والبوب، جميعهم مقيمون حول باب الجديد وفي أحياء باب المنارة. المجموعة الموسيقية والآلات هي نفسها إلى حد كبير؛ ما يميزهم، مع ذلك، هو الولاء للأندية الرياضية المتنافسة، إلى جانب بعض الأناشيد في الملاعب.
في كلا الحيين، يبدو أن هذه التجمعات الموسيقية تكافح للبقاء في شكلها الحالي: كمتاجر صغيرة متعددة الأغراض. ومع ذلك، فإن وجود الفنانين والحرفيين الذين يصنعون ويصلحون الآلات الموسيقية في الأجزاء الهامشية من المدينة يشكل حصنًا للذاكرة الثقافية وصنع المكان.

© Aly Mrabet

الحلفاوين والسوق المركزية

الأسواق و «الغذاء للفكر»

من بين العديد من الأسواق النابضة بالحياة في تونس، يبرز اثنان كرمزين للحياة اليومية في المدينة العتيقة: الحلفاوين في شمال الربط والسوق المركزية خارج المدينة العتيقة، في المدينة التي تعود للقرنين التاسع عشر والعشرين. على الرغم من أن المكانين لهما أجواء وإعدادات مختلفة، إلا أنهما يقدمان معًا صورة بريدية للمشهدين الطهوي والعطري في المدينة.

تعتبر منطقة الحلفاوين مزدحمة ومليئة بالتاريخ. ويبلغ شارع السوق الضيق ذروته في ساحة عامة واسعة مزروعة، يهيمن عليها جامع يوسف صاحب الطابع المهيب، وهو آخر مسجد عثماني بني في المدينة عام ١٨١٤، والذي يرأس اليوم بحرًا من الباعة المتجولين غير الرسميين. يقدم السوق، غير المصقول والحيوي، انغماسًا حسيًا في نبض الحياة المحلية اليومية في المدينة العتيقة.

تم إنشاء الحلفاوين في الأصل في أوائل القرن التاسع عشر كمركز حضري جديد فاخر في المدينة العتيقة، حيث تضمّ مسجدًا، حمامًا، مدرسة دينية، ضريحًا، فندقًا، مقاهي، وحتى قصورًا. وفي وقت لاحق، اهتمت الإدارة الفرنسية أيضًا بالحي، وعززت الساحة العامة كواحدة من القلائل من المساحات العامة المزروعة داخل المدينة. ومع ذلك، مع إعادة بناء باب سويقة وإنشاء الطرق الدائرية حول المدينة، أصبحت الحلفاوين تدريجياً قطاعاً حضرياً، وتحولت مع مرور الوقت إلى واحدة من أكثر أحياء المدينة فقراً.

بالمقابل، تم بناء السوق المركزية في عام 1891 من قبل الإدارة الفرنسية القائمة، وهي مستوحات من أسواق هال في باريس. ونتج ذلك عن إزاحة وتوسيع فندق الغلة الأصلي، وهو السوق التقليدي للمدينة، الذي تم نقله من أحياء باب بحر إلى المدينة الجديدة.
اليوم، أصبحت هذه السوق أكثر ترتيبًا من الحلفاوين، لكنها لا تقل كثافة وحيوية. إذ تعجّ الأكشاك والعربات والمحلات بالمنتجات المحلية: الفواكه والخضروات والأسماك واللحوم والتوابل والأجبان، والأعشاب، والزهور، والتوابل. الطيف الكامل لما تنتجه الأرض وما يستهلكه الناس موسمًا بعد موسم. يترافق العرض الحي للألوان مع صوت البائعين الذين يروجون لبضائعهم، مما يخلق جواً مكثفاً بقدر ما هو أصيل.

تبرز هذه الأسواق تجربة غامرة في الحياة اليومية للناس. إنها تقدم توضيحًا ملموسًا لتقلبات الاقتصاد المحلي، لمحة عن روتينهم اليومي، ورؤية لوضعهم المالي، وفي النهاية، لمزاجهم العام. التغيير سريع في الأسواق. وتؤثر تقلبات الأسعار وتوافر السلع ليس فقط على ما يمكن للناس شراؤه وما لا يمكنهم شراؤه، بل هي تؤثر كذلك على صحتهم وطاقتهم ووضعهم أثناء تنقلهم في شوارع المدينة.

من بين جميع الطرق لاستكشاف المدينة العتيقة، فإن التجول في أسواقها هو على الأرجح أفضل طريقة لفهم تحولاتها: تحدث تغييرات سريعة مع تباين مستويات التضخم والإمدادات، مما يؤثر على المزاج العام للشوارع. وتحدث التغيرات المتكررة موسميًا حيث تتغير الألوان السائدة والروائح في الأكشاك عندما ننتقل من الرمان إلى الزيتون والتمر، ثم إلى الحمضيات وزهور البرتقال والتوت، ثم إلى البطيخ والبطيخ الأحمر، لتبدأ الدورة نفسها مرة أخرى.

أخيرًا، فإن التجول في السوق يوفر نظرة ثاقبة على ما هو ثابت أو يتغير ببطء في المدينة: ممارساتها المطبخية الأكثر رسوخًا، كيف تطور المجتمعات فن الطهي، كيف تبتكر ثقافتها الخاصة، وكيف تحافظ على روابطها بالأرض.

الخريطة المقترحة على شكل أرخبيل ضمن هذا المشروع، هي كوكبة من الأماكن التي جمعها أفراد شهدوا تغيرها وتطورها. كان الأرخبيل سيبدو مختلفًا تمامًا لو طُلب من أشخاص آخرين تجميعه، مختلفًا في مادته ومعناه.

العديد من المواقع الأخرى قد تستحق الإدراج في دليل لاستكشاف المدينة العتيقة: فضاءاتها المقدسة العديدة، المدارس، الأسواق، الفنادق، الحمامات، القصور والمنازل؛ أزقتها المميزة، حدائقها المخفية، أسطحها غير المتغيرة، ورش الحرفيين والفنانين. ومع ذلك، هذه هي الأماكن التي اختارها مجموعتنا لتسليط الضوء عليها؛ تلك التي اختاروها عندما طُلب منهم التفكير في التحولات التي شهدتها مدينتهم.
بينما كانت نسخة أخرى من هذا الأرخبيل ستتضمن بلا شك أماكن وانطباعات أخرى، فإن ما يبقى ثابتًا هو رابط عميق (غالبًا ما يُنسى في تنوع المشاعر الإنسانية) يربط الناس بمدنهم، وببعض المناظر الطبيعية والأشكال الحضرية: رابط تتميز بالإخلاص والتعاطف والتجذّر في المكان.

هذا الرابط يتجاوز التغيرات، العظمة أو النقص، الجمال أو القبح في مكان ما. هو يوجد خارج التذبذبات بين خيبة الأمل والأمل، الخوف والصمود. فالمدن هي امتدادات لمن نحن؛ فهي تعبيرات عن أجساد سكانها وعقولهم ومشاعرهم. إنها (تُعيد) تشكيلنا كما نُعيد تشكيلها. لذلك، هدفنا هو أن يكون هذا المشروع تذكيرًا بقوة وأهمية تلك العلاقة التبادلية بين الناس والمشاهد الحضرية، وبين المجتمعات والأرض.

مرحبًا بكم في المدينة العتيقة.

© Topaz
"El Msabb" by Atef Maatallah, L'Art Rue, Tunis 2018-2019

Slash/ Transition

L'Art Rue
الشارع فن

Co-funded by the
Creative Europe Programme
of the European Union

© Topaz

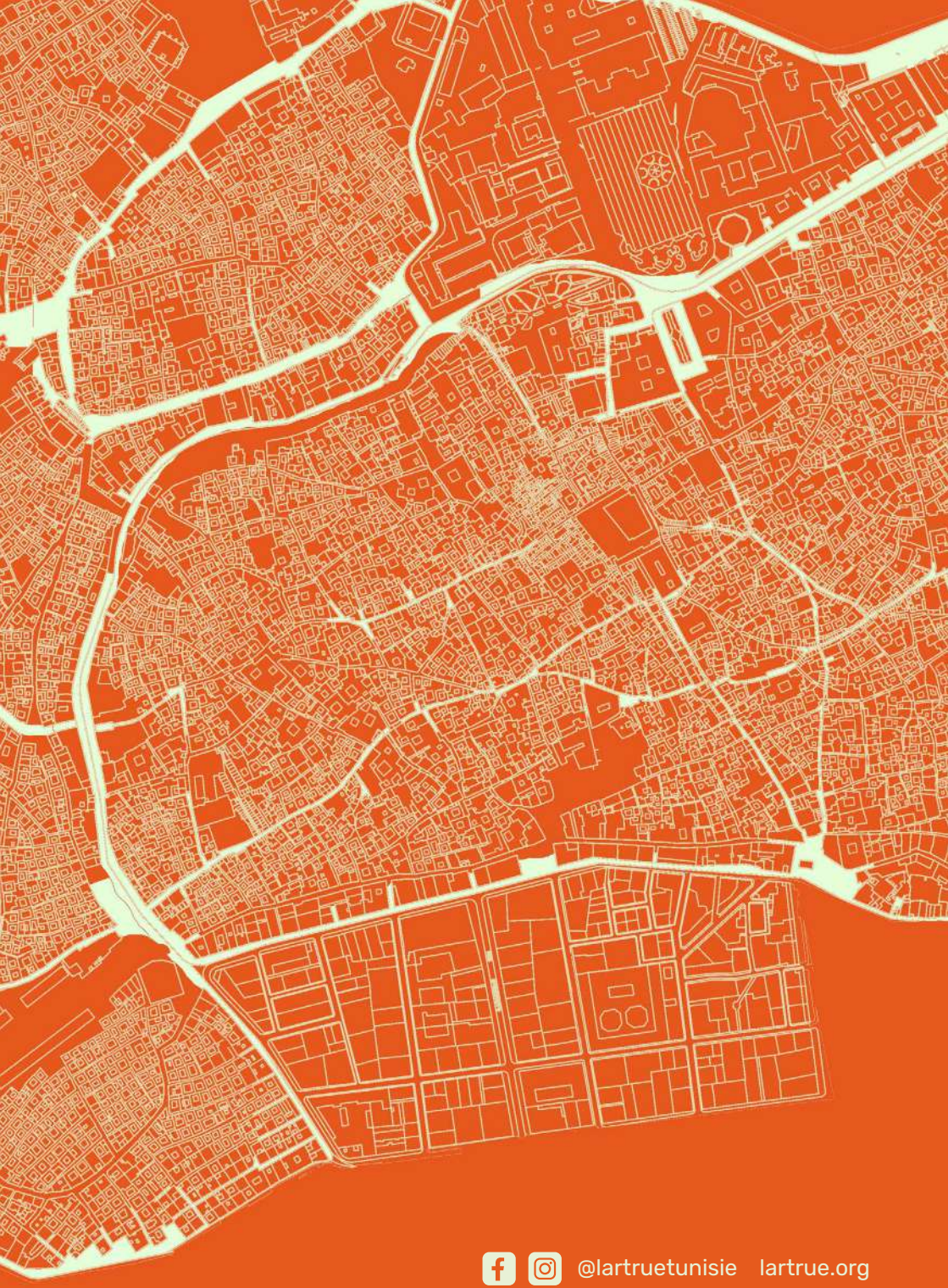

@lartruetunisie lartrue.org